مجتمع قمران الدينى بين الطوائف المعاصرة

من نوافل القول أنه لكى نحدد الجماعة الدينية صاحبة مخطوطات البحر الميت والتى اتخذت من وادى قمران مقرًا لها قبيل ظهور المسيحية لابد بالضرورة أن نتطرق بداية إلى تطور الطوائف الدينية اليهودية بعد الفترة المؤابية تلك الفترة التى سادتها ثلاث طوائف دينية يهودية رئيسية هم: الصدوقيون، الفارسيون، الإيسينيون وبالطبع كانت هناك طوائف أقل شأنا وأهمية يمكن أن نعرض لهم سريعًا فيما بعد مثل: الزيلوت والآسيديين (الهاسديين: الحاسديين) وغيرهما.

لقد كانت هناك سلسلة متفاوتة من الطوائف الدينية تكشف عن قدر كبير من الاختلافات بل والتنازعات ظهرت فى اليهودية فى فترة المعبد الثانى (٥١٦ق.م - ٧٠م) وخاصة خلال الكومنولث الثانى فى فلسطين والذى استمر من ثورة المكابيين الناجمة من أجل الاستقلال فى القرن الثانى قبل الميلاد وحتى العصر الرومانى وقت سقوط بيت المقدس وهدم المعبد سنة ٧٠م.

وربما كانت أول طائفة خرجت وانشقت على الإجماع كانت طائفة السامريين والتى اعتنقت مبدأ أن اليهودية تقوم فقط على أسفار موسى وحدها. وإن كانت هذه الطائفة لا تعنينا هنا لأن الذى يهمنا بالدرجة الأولى طائفة مجتمع قمران والطوائف ذات الصلة. وبعد ذلك استعر الخلاف وتعمق حول قضيتين أساسيتين: حيث رأى الصدوقيون أن الكتابات المقدسة وحدها بدون التفاسير الربابينية هى التى تؤسس اليهودية، بينما رأى الفارسيون (الذين كان قدرهم أن يحموا اليهودية وينقلوا الدين اليهودى) أن الأحاديث والقانون الشفوى على نحو ما فسره الربانة هو تكملة ضرورية للقانون الموسوى المكتوب. وأما الطائفة الثالثة وهم الإيسينيون فقد اتخذت نزعة تصوفية زاهدة عاشت عيشة جماعية، ورفضوا تعبد المعبد وتكريسات الحيوانات؛ وركزوا على توقع مجيء السيد المسيح: وقد عرف عن

الإيسينيين وجود العديد من الباحثين الدارسين العلماء بين ظهرانيهم ولذا اشتهروا بجماعة مخطوطات البحر الميت.

وقد مثلت هذه الطوائف فلسفات مختلفة تراوحت بين المحافظة والتطرف؛ بين الزهد والعزلة إلى النشاط والعنف، بين الأرثوذكسية الجامدة والتحررية الدينية. ولم تقتصر الخلافات بين هذه المذاهب والطوائف اليهودية فى تلك الفترة على القضايا الدينية بل انصرف الخلاف إلى القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية أيضًا. ولذلك فقد يكون مفيدًا أن نلم بتلك الطوائف جميعًا ولو فى عجالة حتى نصل إلى التحديد الدقيق لمجتمع قمران صاحب المخطوطات ذائعة الصيت.

أولاً: الصدوقيون:

كان الصدوقيون أعضاء طائفة دينية يهودية فى النصف الثانى من فترة المعبد الثانى وقد تكونت فى حدود سنة ٢٠٠ ق.م من طبقة القساوسة العليا والأسر الأرستقراطية. وكانت هذه الطائفة معارضة لطائفة الفارسيين كما سنرى فيما بعد حتى هدم بيت المقدس والمعبد سنة ٧٠م. وكانت هذه الطائفة (الصدوقيون تعترض بشدة على التراث الشفوى مصدرًا للديانة اليهودية، على العكس من الفارسيين الذين اعتنقوا هذا الأمر بشدة. وقد عرف الصدوقيون بموافقتهم الدينية المتصلبة وهم محسوبون وبقوة على التيار المحافظ فى الدين، ورغم أنهم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخًا فى الشريعة المكتوبة، إلا أنهم رفضوا اعتقاد الفارسيين فى الخوارق الطبيعية بحجة أنه ليس لها أساس فى القانون الموسوى. ورفضوا الاعتقاد فى بعث ونشور الجسد. وتذكر المصادر أن الصدوقيين رفضوا الاعتقاد فى خلود النفس، كما رفضوا اعتقاد الفارسيين فى وجود الملائكة والسيطرة على الأرواح. وتجنح كثير من الطوائف المسيحية نحو اعتقاد عقائد الفارسيين أكثر من الصدوقيين.

لقد احتل الصدوقيون مكانة شديدة الأهمية فى اليهودية قرب ظهور المسيحية رغم عدم تردد اسمهم كثيرًا على صفحات الأناجيل: وهناك خلاف شديد حول اشتقاق أسم (الصدوقيون) على الرغم من أن كثيرًا من الباحثين يعتقدون أنه جاء

من (صادوق/ زادوك) الكاهن الأكبر على أيام داود وسليمان؛ بينما على الجانب الآخر يرى بعض الباحثين أن الاسم جاء من اسم رئيس الطائفة المجهول لنا ويرى بعض ثالث أن الاسم جاء من الصدق والمصدقين على نحو ما نقول فى الإسلام (أبو بكر الصديق). وتذكر المصادر الثقاة أن طائفة الصدوقيين هذه هى التى وليت أمر المعبد حتى القرن الثانى قبل الميلاد على الرغم من أن بعض كهنة المعبد لم يكونوا من الصدوقيين ومن ثم يكون الصدوقيون هم أتباع أو هم أفراد طائفة الصدوقيين وليسوا بالضرورة منحدرين من صلب (زادوك أو صادوق).

وكما ألمعت كانت جماعة الصدوقيين تتألف إلى حد كبير من العناصر الغنية الثرية فى المجتمع: القساوسة الكبار ذوو النفوذ، التجار الأغنياء، الأرستقراطيون وقد هيمنوا على المعبد وإدارة الطقوس والشعائر. وكان كثير منهم أعضاء فى الـ (ساندهدرين) (أى المجلس اليهودى والقبائلى الأعلى لفترة المعبد الثانى) وربما من هذا المنطلق كانت هذه الطائفة ذات تأثير سياسى واقتصادى كبير.

ولقد لعبت سلالة صادوق (زادوك) دورا هامًا فى العمل القسى فى فترة ما بعد الأسر البابلى على نحو ما حدث مع حزقيال وفى كافة الأحداث التى وقعت كان لهم تأثير كبير فى الحياة السياسية والاقتصادية طوال القرنين السابقين على المسيحية وخاصة بين الطبقات العليا فى المجتمع. والدلالة الأكيدة على اختراقهم اليهودية التقليدية تكمن فى أنهم طوال فترة العهد القديم كان كبار الكهنة من بينهم أى صدوقيون وباعتبارهم من الأرستقراطية القسية فإنهم كانوا يساندون قيادة الحكومة القوية واستقطاب الأقلية الغنية فى المجتمع.

وكانت عقيدة هؤلاء الصدوقيين مبنية ومستقاة من التوراة وحدها. وقد اسفر هذا الاتجاه عن أيديولوجية مادية بحتة، وكما ألمعت أنكروا وجود الملائكة والشياطين والأرواح ونفوا نفيًا قاطعًا بعث الجسد وروجوا لموت النفس بموت البدن. وكطائفة دينية كانوا دائمًا بين الأقلية، ورغم ذلك فإنهم استمروا فى ممارسة تأثيرهم فى كل اتجاه إلى أن انتهوا واختفوا مع سقوط أورشليم القدس.

وربما كان الخلاف الأساسى بين الفارسيين والصدوقيين يكمن فى نظرة كل منهما

واتجاهه نحو التوراة. وكان كل منهما يعتقد فى سيادة التوراة وتفوقها، إلا أن الفارسيين أحلوا التراث الشفوى (الأحاديث) والشريعة الشفوية مكانة من الحجية مساوية للتوراة المكتوبة، كما قالوا بالضرورة بأهمية تفاسير وشروح الشريعة والتراثيات الشفوية. ولكن الصدوقيين على الجانب الآخر رفضوا قبول أى شيء لا يستند مباشرة إلى التوراة. وكان الصراع الأيديولوجى بين الطائفتين هو صراع فعلى بين فكرتين حول (الله)؛ فالصدوقيون ينزلون الله منزلة بشرية وإلههم متجسد فى صورة بشر والعبادة التى تقدم له تشبه الولاء الذى يقدم للملك أو الحاكم البشر. ولكن الفارسيين على الجانب الآخر سعوا إلى رفع الإنسان إلى مرتبة ألوهية عالية ويقربه من الله الروح السامى فوق الوجود. ومن واقع التلمود وغيره من الكتب نعرف أن الخلافات الرئيسية بين الفارسيين والصدوقيين إنما هى بصفة خاصة نظرة كل منهما إزاء تلك القوانين الشرعية التى لا تحتويها التوراة أى أسفار موسى ولكنها تستمد فقط من العرف والتقاليد وقد نظر إليها الفارسيون على أن لها نفس الحجية التى للقانون المكتوب، بينما أنكرها الصدوقيون تماما ونفوا أن يكون لها حجية أو قوة جبرية ولأن الصدوقيين يخضعون لسلطان القانون (الشريعة) المكتوب (الذى يسميه اليهود قانون الحرف). وكان الصدوقيون يعترضون على التغييرات والتفاسير ورفضوا قبول العرف والتقاليد الشفوية التى رأى الفارسيون أنها تكمل القانون المكتوب.

وبصرف النظر عن الخلافات المذكورة بعاليه بين الفارسيين والصدوقيين فيما يتعلق بالعرف والتقاليد الشفوية كمصدر للتشريع والخلاف حول القوى الطبيعية الخارقة. كانت هناك خلافات عديدة حول الشعائر الشرعية وخاصة تلك المتعلقة بالمعبد. وعلى وجه الإجمال بينما الفارسيون أدعوا سلطان التقوى والعلم، أدعى الصدوقيون سلطة الدم (أضحيات المعبد) والمكانة، وكانت المنافسة بين الفارسيين والصدوقيين شبيهة بشكل أو آخر أو هى أحياء للمنافسة التى كانت قائمة بين الأنبياء والكهنة فى فترة ما قبل الأسر البابلى؛ ذلك أنه بعد ترميم المعبد وإعادة بنائه وانتظام الشعائر والعبادات به، استرد القساوسة مكانتهم أيضًا وعادوا إلى عملهم كقادة دينيين، إلا أن ظهور طبقة المثقفين والكتّاب ممن لديهم معرفة وإحاطة

بالشريعة، قد أثار الشكوك سلطان القساوسة الذى لا ينازع. وكان الحكم اليونانى قد أضعف سلطان القساوسة لأنه بين اليونانيين أنفسهم كان القساوسة هم الخدم وليس القادة فى المجتمع. وربما من هنا أخذ المتعلمون من بنى إسرائيل من غير القساوسة يلعبون دورًا هامًا فى تصريف الشئون الدينية والمدنية للناس. ومع مطلع القرن الثانى قبل الميلاد أصبح الصدوقيون يتألفون من قادة قساوسة وعلمانيين.

ويجب أن نتذكر أن الصدوقيين كانوا يمثلون طائفة القساوسة المحافظين المتمسكين بالعقائد القديمة وممارسة الشعائر كما كان السلف البعيد يمارسها فى المعبد ولقد حافظوا على الأفكار البدائية البالية حول (الله) من جهة والغرض من العبادات المقدمة له سبحانه فى المعبد. وكانوا يعترضون على أى إصلاح يمكن إدخاله فى خدمة الله وكانت هناك كذلك خلافات واضحة بين الصدوقيين والفارسيين حول الصلاة والتكريس. وربما كانت أكثر الوسائل تأثيرا على عقول الناس والتى استخدمها الفارسيون لتأكيد أن التكريسات ليست أكثر أشكال العبادة قبولا؛ كانت هذه الوسيلة هى إنشاء سينا جوج فى دائرة الحرم القدسى للمعبد؛ وجعلوا التعبد فى السينا جوج مساويا للتكريس فى المعبد. وهذه الحقيقة كانت تفترض أن السيناجوج قد فرض على القساوسة فرضا من قبل الفارسيين؛ إلا أن التلمود لا يفصِّل موقف الصدوقيين من الصلاة والتكريس. ولكن من البديهى ألا يرحب الصدوقيون بشعائر دينية تقتصر على الصلاة والدراسة فقط، لأنها فى نظرهم تقلل من أهمية شعائر التكرميس ومن ثم تضعف من موقفهم كقساوسة.

ويبدو أن الصدوقيين لم يكونوا يؤمنون بالقضاء والقدر ففى مشكلة السلوك والتصرفات والنشاطات الإنسانية يعتقد الصدوقيون أن الله غير معنى بالشأن البشرى. وكما ورد فى مصادرهم فإن الصدوقيين ينبذون فكرة القضاء والقدر وينكرون وجود مثل هذا الشيء؛ وأن أحداث الشأن البشرى لا تفرض نفسها وهم يعتقدون أن كل أفعالنا هى تحت سيطرتنا وسلطاننا ومن هنا فإننا نحن سبب الخير فى حياتنا وأن الشر هو نتيجة غفلتنا وغباوتنا. وبمعنى آخر فإنهم ببساطة لا يؤمنون بالسطوة الإلهية. ومن أسف فإنه لم يصلنا عن الصدوقيين بيان صادر عنهم

بعقائدهم ومبادئهم. وكل ما يصلنا إشارات فى كتابات الربابنة إلى تفاسير وشروح وتعليقات الصدوقيين حول القانون (الشريعة اليهودية). وقد صُوِّر لنا الصدوقيون على أنهم ارستوقراطيون متحررون ذوو عقلية عالمية وكل همهم أن يحافظوا على امتيازاتهم ومواقعهم ويفضلون أو يعتنقون الثقافة اليونانية – الرومانية.

وفى العهد القديم لعن يوحنا المعمدان الفارسيين والصدوقيين على السواء وأطلق عليهم (جيل الأفاعى السامة) وتحداهما أن يأتيا بثمرات التوبة.

وصفوة القول فى الصدوقيين أنهم من الناحية التاريخية وقعوا تحت تأثير الهللينية وبعد ذلك طوروا علاقة جيدة مع الحكام الرومان، على الرغم من أنهم لم يكونوا على علاقة طيبة مع العامة الذين بعدوا عنهم. وكان للصدوقيين السلطة الطبقية العليا فى المعبد. ولم تصبح للفارسيين السلطة على المعبد إلا فى العقدين الأخيرين من وجود المعبد ولما كان وجود الصدوقيين وسلطانهم مرتبطين أساسًا بشعائر المعبد، كان من الطبيعى أن يختفوا من الوجود بعد هدم المعبد سنة ٧٠م. ومع نهاية النصف الأول من القرن الثانى الميلادى أصبح المعلمون والقادة الفارسيون اليهود وحدهم فى الميدان، وحدهم على الساحة.

ثانيًا: الفارسيون:

كان الفارسيون طائفة من الطوائف اليهودية الدينية خلال فترة المعبد الثانى، وقد برزت كطائفة متميزة مباشرة بعد ثورة المكابيين ١٦٥ - ١٦٠ ق.م وربما انبثقت عن الحاسديين أو الآسديين. ومن ناحية العرف والتقاليد كان الفارسيون خلفاء لـ عزرا والكتاب الأوائل (رجال السيناجوج الأعظم) وقد نظروا إلى عزرا على أنه مؤسس اليهودية بعد موسى مباشرة وعلى الرغم من أن الفارسيين قد لعبوا ومارسوا دورا وقوة سياسية كبرى فإنهم لم يكونوا حزبا سياسيا أو طائفة سياسية ولكنهم مثلوا الطرف الأرثوذكسى فى اليهودية. وفى نظرهم وعقيدتهم لم تكن مبادئ الدين اليهودى موجودة فقط فى أسفار موسى (التى اعترف بها الصدوقيون وحدها مصدرا لليهودية) وإنما اعتقدوا كذلك فى القانون الشفوى التقليدى وعلى عكس الصدوقيين آمن الفارسيون ببعث ونشور الجسد بعد الموت كما آمنوا بالثواب

والعقاب فى الآخرة وفى ظهور المسيح عيسى بن مريم وفى وجود الملائكة كما آمنوا بالمعرفة الإلهية والعلم الإلهى والقدر المسبق وفى نفس الوقت آمنوا بحرية المرء فى الاختيار، ومن ثم مسئوليته عن أفعاله. ونحن لا نعرف على وجه الدقة من أين اشتقت كلمة فارسيين، ويرى فقهاء العبرية أنها ربما جاءت من الفعل العبرى (باراش) أى ينفصل؛ ومن ثم يكون فارسى بمعنى الشخص المنفصل أو الانفصال. وطبقًا لما قال به بعض الباحثين فإن الفارسيين هم هؤلاء المنعزلون، أى الذين اعتزلوا الناس أو تجنبوا الاتصال بهم رغبة أو إقامة لشعيرة التطهر، أو بمعنى آخر هؤلاء الذين عزلوا أنفسهم وفصلوا أنفسهم عن الأوثان وعن الاتجاهات والميول الوثنية وقوى الوثنية داخل أمتهم مثل الصدوقيين.

ولقد حاول الفارسيون أن يحافظوا على كل ما هو حق فى الديانة اليهودية ونبذوا كل ما هو مدنس. ومن هنا أرجع الفارسيون كل شيء إلى التوراة وأصروا على الاتباع الصارم للتعاليم اليهودية فى كل جوانب الحياة. وعلى الرغم من أن الفارسيين كانوا قلة نسبيا فى العدد، إلا أنهم من حيث العقائد الدينية والممارسات والنظرة الاجتماعية كانوا يمثلون الأغلبية الساحقة من المجتمع اليهودى المعاصر. وفى الكتاب المقدس (العهد القديم) كان الفارسيون هم المتحدثون باسم السواد الأعظم من السكان. وكانت نشاطاتهم فى الأعم الأغلب موجهة نحو الجموع الغفيرة التى سعوا إلى إشباعهم بروح من القداسة عن طريق التعليم الدينى التقليدى. ومع مرور السنين كانت قلوب الجموع تلتف حول الفارسيين أكثر وأكثر لدرجة أنهم فى القرن الأول الميلادى جلسوا فى (مقعد موسى) على ما قالت به المصادر الباكرة. وكما ألمعت من قبل لم يكن الفارسيون حزبا سياسيا أو طائفة سياسية ولكن قيمهم الدينية حلقت عاليًا وارتفعت إلى عنان السماء لدرجة أنها انتشرت خارج المنطقة وطالما أن هذه القيم الدينية لا تصطدم بالحياة الداخلية أو بحياة الحكومة غير التقية. وفى إحدى المناسبات ظهر أمام مارك أنطونيو ثلاثة وفود فارسية فى مخاطرة شخصية أمام مارك أنطونيو يرجونه بالحاح أن يبعد هيرود (٧٣-٤ق.م). ومرة أخرى خلال الحرب الكبرى مع الرومان قام إثنان من القادة

الفارسيين هما: جوهانان بن زكاى وجوزيفوس بعقد الصلح مع فيسباسيان (٦٩ – ٧٠م).

أما عن الخلفية التاريخية التى جاء منها الفارسيون فهى طويلة نسبيا ذلك أنه بعد قرنين من الأسر البابلى منح القس الأعلى لليهود الحق فى القيادة السياسية والدينية للشعب اليهودى؛ وكما أشرت كانت إقامة الشعائر فى المعبد وإدارة شئون البلاد فى يد الصدوقيين الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية القسية وفى يد الحكام الحاسمونيين الذين كان الصدوقيون يدعمونهم. وقد خاض القادة الفارسيون الذين جاءوا فى الأعم الأغلب من بين الجموع الشعبية صراعًا مريرًا مع الصدوقيين فى سبيل تحرير الدين اليهودى من القبضة الحديدية لقساوسة المعبد وجعل الدين للشعب وليس حكرا لفئة ذلك أن كثيرا من الشعائر والطقوس التى أدخلها الفارسيون إلى البيوت كانت فى الأصل جرءًا وقاصرة على شعائر المعبد وحده. وهكذا قام المتعلمون من رجال إسرائيل من غير القساوسة بلعب دور هام فى سلوك الناس الدينى وإلى حد ما فى الشأن الدنيوى لهم. وبينما أرهق القساوسة أنفسهم فى شعائر المعبد ، وجد الفارسيون وظيفتهم الأساسية فى تعليم وتدريس وحفظ كتاب الله وشريعة الله. وبهذا لمعنى أفسح الفارسيون المجال للمسيحية.

ومع مطلع القرن الثانى قبل الميلاد نجد أن السانهيدرن (المجلس اليهودى والقبائلى الأعلى لفترة المعبد الثانى) أصبح يتكون من كل من القساوسة والقادة الدينيين أيضًا. وطالما كانت الوظيفة الأساسية للسانهيدرن هى إيجاد إجابات واتخاذ قرارات من واقع نصوص توراه موسى القديمة لأسئلة تواجه الناس فى زمانهم، كان لابد من حدوث صراع بين القساوسة والقادة المدنيين حول وجهات النظر المتعارضة حول اية مشكلة. كذلك أصبحت الخلافات بين الصدوقيين والفارسيين حول تفسير التوراة علنية وصارخة.. لقد حاول الفارسيون أن يبسطوا نفوذهم على المعبد وذلك لكبح جماح وتقليص سلطة الصدوقيين. ولقد امتد الخصام والعداء بين الفريقين إلى أبعاد شتى: فقد كان الفارسيون يؤمنون عموما بمبدأ التطور فى قراراتهم الشرعية، بينما لم يكن الصدوقيين بقادرين على التكييف مع البيئة المتغيرة

والظروف الجديدة ومن هنا تمسكوا بحرفية ما جاء فى النص المكتوب. هذه الخلافات التى كان لها جانب سياسى إلى جوار الجانب الدينى، أصبحت أساسية وتسببت فى ظهور طائفتين أو حزبين متميزين هما: الصدوقيون والفارسيون. ونستعرض على الصفحات الآتية بعض جوانب العقيدة الدينية للفارسيين.

فيما يتعلق بالعقيدة اليهودية تعلم الفارسيون من أنبياء اليهود أن يفكروا فى الله كروح: القادر والعادل، العاقل، العارف، الرحيم ومثل الأب يحب كل مخلوقاته، ليست له صورة أو شكل وليس كمثله شىء. لا تحده حدود وهو سبحانه كلى الوجود. لقد كان الفارسيون يؤمنون بالله كلى القدرة لا يستعصى على قدرته شيء حتى حمل المرء على أن يفعل الخير أو الشر. ولكن كان لابد للإنسان أن يكون له الإرادة إذا كان يريد أن يكون كائنًا أخلاقيا وحيث أراده الله أن يكون ولذلك أعطاه الله سلطة الاختيار بين الخير والشر وأوصاه أن يفعل الخير رغم أنه أودع النبضتين نبضة طيبة ونبضة خبيثة. لقد أعطاه التوراه كى يهتدى بها. والتوراه كما فهمها الفارسيون تعلم مفهوم الألوهية. ولا ينبغى أن نأخذ التعبيرات التى تتحدث عن صفات الله البشرية بحرفيتها. وقد رأوا الله وأدركوه على أنه واحد لا شريك لا يدركه أى بشر ولا يحيط به أحد لأنه سبحانه لا يحده شيء ولذلك تجنبوا استخدام حتى أسماء الله التى وردت فى الكتاب المقدس إلا عند الصلاة وقراءة نصوص الكتابات المقدسة. لقد شعروا بأنه ليس هناك اسم واحد يمكن أن يحدد ذات الله أو يصف كلية وجوده سبحانه. ولقد تحدث الفارسيون عن الله بمصطلحات (خالق الكون)، (الرحمن)، (الحضرة المقدسة)، (الروح القدس). والصفتان الأخيرتان لم يكن الفارسيون أو الربابنة ليستعملوهما مستقلتين، بل كانا يستعملان لوصف قدرة الله التى لا يحيط بها بشر.

أما عن موقف الفارسيين من التوراة فإنهم كانوا يعتقدون أن التوراة التى أعطاها الله لموسى كانت ذات وجهين: كانت تشتمل على القانون (الشريعة) المكتوبة وكذلك القانون (الشريعة الشفوية) وربما كانت أول إشارة سريعة إلى الشريعتين (القانونين) تنسب فى التلمود إلى هليل. والتوراه بالنسبة للفارسيين هى وحى إلهى

إلى الإنسان متمثلة فى أسفار موسى الخمسة وقد كملتها وفسرتها تعاليم الأنبياء وغيرها من الأحاديث الشفوية غير المكتوبة التى قال بها الآباء. وكان الهدف من التوراه هو أن تهدى المرء إلى الصراط المستقيم فى الحياة. وطالما أن الفارسيين لم يتبعوا حرفية ما جاء فى التوراه أتباعا أعمى عندما تعارضت مع المنطق أو الضمير فإنهم لم يجدوا صعوبة كبرى أو حرجا فى تكييف تعاليم التوراة مع أفكارهم المتقدمة أو أن يلووا نص التوراة ليجدوا أفكارهم موجودة فيه. وبصر الفارسيون على أن ما ورد فى الشريعة الشفوية (القانون الشفوى) هو إجبارى وملزم؛ هذه الشريعة الشفوية فى رأيهم أوحيت إلى موسى بالتواكب مع الشريعة المكتوبة. وفى هذا القانون (الشريعة الشفوية) نجد التقاليد والممارسات التى تطورت وطبقت فى القرون التى تلت. ولإيجاد علاقة بين الكتابات المقدسة والممارسات المتطورة وضع الفارسيون نظامًا معينا للتوفيق بينهما أو بمعنى أدق تحقيق الانسجام بينهما. وكانت نظرتهم إلى الشريعة ورأيهم فيها هو أن تدرس بدقة وأن تفسر الوصايا العشر على ضوء المعايير التى يراها مدرسو كل جيل وبحيث تنسجم مع الأفكار المتطورة للعصر. وكان من الطبيعى أنه مع مرور الوقت أن يتراكم لديهم قانون أو شرع خاص وبدون وعى أو قصد أعطوا لهذا القانون معنى جديدًا أكثر قبولا لديهم، لأنهم كانوا على قناعة بأن المرء يجب أن يستخدم العقل الذى منحه الله إياه فى تفسير التوراة. وهكذا فإن تعاليم التوراة كانت تفسر بطريقة تجعلها تنسجم مع الحقائق الناتجة من العقل الذى منحه الله للإنسان، ولأن الشرع لا يمكن أن يعنى أى شيء آخر بخلاف ما فهمه المدرسون من معنى. ومن هذا المنطلق قام الفارسيون بتفسير الشريعة (القانون) طبقًا لروح القانون ونبذوا حرفيته عندما يكون الفعل والضمير على خلاف معه. وعلى سبيل المثال فإن شرع موسى الذى يقول (العين بالعين) فسره الفارسيون على أساس أنه تعويض مالى وليس على أساس مقابلة الأذى بالمثل. وسبب هذا الاتجاه الثقة فى التفسير لدى الفارسيين للتوراة أن استمر مذهبهم كقوة دافعة فى اليهودية إلى اليوم.

وكان للفارسيين أسلوبهم الخاص فى التعبد لله حيث كانوا يعتقدون أن اسم الله

يجب أن يسبح وأن يمجد وأن يذكر منذ بزوغ الشمس حتى غروبها؛ كما كانوا يعتقدون أنه لا يوجد مكان ليس فيه الله ولا يوجد مكان لا نصل فيه إليه بالصلاة ومن هذا المنطلق فإنهم قد خلصوا إلى أن الله يمكن بل ويجب أن يعبد من أى مكان خارج المعبد بل وخارج بيت المقدس كلها. كما شعر الفارسيون أن العبادة لا تكون بالتكريسات وحدها وإنما أيضًا بالصلاة ودراسة الشريعة، شرع الله، ومن هذا المنطلق نشروا ودعموا السيناجوج باعتباره مؤسسة متفردة للعبادة الدينية خارج المعبد بل ومنفصل عنه. ويرى كثير من الباحثين أن السيناجوج هو مؤسسة فارسية تعزى إلى الفارسيين وهم وإن لم يكونوا أول من أنشأها لكنهم طوروها وأعطوها الأهمية التى تستحقها وأحلوها المكانة والوظيفة التى هى عليها الآن باعتبارها المركز المحورى فى الحياة الدينية للشعب أما عن المشيئة الإلهية والإرادة البشرية فقد كان للفارسيين رأى مختلف عن رأى الصدوقيين حيث كان الصدوقيون يعتقدون أن الله – سبحانه وتعالى – لا يشغل نفسه بشئون الخلق اليومية ويترك كل امرئ لشأنه وإمكاناته. أما بالنسبة للناس كمجموع فإنه – سبحانه وتعالى – يمنحهم حمايته إذا أطاعوا أوامره كما يعاقبهم إذا عصوا أوامره وشرعه وخانوا عهده وميثاقه. ولكن على الجانب الآخر يعتقد الفارسيون أن الله – سبحانه وتعالى – مطلع على دقائق أفعالنا كلها ويعرفها ويراها. وهم يعتقدون فى أن فعل الخير وفعل الشر هو من سلطة الإنسان على الرغم من أن القدر يتدخل فى كل تصرف. ومع الاعتقاد فى المشيئة الإلهية والعلم المسبق بتصرفات وأفعال البشر، يرى الفارسيون بأن الإنسان مخير لا مسير ويعتقدون فى حرية الإرادة الإنسانية. وقد أكدت على ذلك الكتابات التلمودية التى دبجها أتباع الفارسيين الذى ذكروا بأن "كل شيء فى يد الله؛ والخوف من الله" ورغم أن "الله مطلع على كل شيء إلا أن حرية الاختيار مكفولة". وهذا الاتجاه من جانب الفارسيين أصبح أمرًا مقبولاً. وقد صاغ التلمود هذه الحقيقة صياغة دقيقة "لو اختار المرء فعل الخير فإن قوى السماء سوف تساعده، ولو أنه اختار فعل الشر فإنها تترك الطريق مفتوحا أمامه". ومن هنا يخلص الفارسيون إلى أن الله قادر على أن يحسم ويحدد اختيارات المرء ولكنه لا يرغب ولا يفعل ذلك؛ فهو سبحانه يريد للمرء أن يختار لنفسه.

وفى قضية الثواب والعقاب كان للفارسيين رأيهم المخالف بطبيعة الحال لرأى طوائف يهودية أخرى حيث كانوا يعتقدون أنه طالما كان الإنسان مسئولاً عن أفعاله وتصرفاته فإنه لا بد أن يكون هناك ثواب وعقاب إلهى. والحقيقة أنه لم يصلنا سجل أو شيء مكتوب من جانب الفارسيين الأوائل يفسر لنا من وجهة نظرهم لماذا يعانى الأتقياء الخيرون ويقاسون فى حياتهم بينما يزدهر الأشرار وينعمون فى حياتهم، وربما يكونون قد توصلوا إلى حل لهذه المعادلة وهو اعتقادهم فى (الحياة بعد الموت)، وحيث اعتقدوا أن النفوس خالدة لا تموت وأنها ستجازى تحت الثرى بالثواب والعقاب طبقا لما كسبوه من خير أو اقترفوه من إثم فى هذه الحياة. ومن الجدير بالذكر أن الفارسيين لم يكونوا فلاسفة وربما لم يتوقفوا ليدركوا الصعوبات الفلسفية التى تثيرها حلولهم الساذجة البسيطة. لقد كانوا معلمين عمليين للدين ولأغراض تعليم الدين والسلوك القويم كانت تلك الإجابة العلمية غير المعقدة. وكان من الطبيعى أن يدلى الفارسيون بدلوهم فى قضية البعث والنشور والخلود. لقد آمن الفارسيون ببعث الموتى على نحو ما ورد فى التلمود والعهد القديم، ذلك أن حياة المرء لا يمكن أن تنتهى بالموت. وكان هذا الاعتقاد فى الحياة الآخرة والعالم الآخر مدعاة بالضرورة إلى الاعتقاد فى العدالة الإلهية والثواب والعقاب، فى مواجهة الظلم على الأرض والإنحراف فى الحياة الدنيا. وهنا مرة أخرى نجد حلاً عمليا للمشكلة الأزلية وهى مشكلة إغراء المرء للخروج من الفضيلة التى فطر عليها، وترك طريق الحق والاستقامة. ومع أن الخلود والبعث والنشور لها جذورها فى الديانة المصرية القديمة وأخذها عنهم الأغريق والفرس، إلا أنها بالنسبة للفارسيين تعتبر عقيدة يهودية جديدة تستند إلى بعض فقرات فى التوراة.

ولقد اهتم الفارسيون اهتماما خاصا بخلاص شعبهم وخلاص البشرية، وكذلك اهتموا بمستقبل العالم عندما تلحق البشرية كلها بأسرائيل فى قبول التوراة والاعتقاد فى الله الواحد. لقد آمن الفارسيون فى بشرية واحدة كما آمنوا بالله الواحد. وطبقا لمعتقدات الفارسيين فإن كل الناس ولدوا متساوين؛ ووضع اسرائيل بين الأمم الأخرى كوضع الأخ الأكبر طالما أنها كانت أول أمة تعرف الله كأب وأن من

واجب إسرائيل ووظيفتها أن تساعد الشعوب الأخرى على أن تفعل نفس الشيء. وطبقا لمعتقدات الفارسيين فإنه من أجل هذا الغرض أعطى الله – سبحانه وتعالى – التوراة لإسرائيل فى البرية ولم يعطه لها فى فلسطين؛ وربما من هذا المنطلق قام الفارسيون بالدعوى لليهودية على أوسع نطاق ممكن. وبنفس كلمات العهد القديم (خض البحر والبر من أجل أن تهود شخصا واحدا).

لقد وضع الفارسيون لأنفسهم معيارًا أخلاقيا على أعلى درجة ولكن ككل شيء فى هذه الحياة لم يرق كل الفارسيين إلى هذه الدرجة من السمو الأخلاقى فالتلمود نفسه يعدد سبع فئات من المنافقين الفارسيين. وربما كانت إشارة العهد القديم المتدنية إلى الفارسيين باعتبارهم (منافقين) أو (أفاعى سامة) موجهة إلى تلك الأقلية من أعضاء الجماعة والذين لم يكونوا مخلصين، والذين كانوا محل إدانة من جانب قادة الفارسيين أنفسهم. ولقد كان القادة الفارسيون أنفسهم واعين بوجود عناصر غير مخلصة؛ وقد أطلقوا عليهم فى التلمود (البؤر الموجعة)، (وباء حزب الفارسيين) ورغم أنهم كانوا يعرفون هذه البؤر الموجعة إلا أنهم لم يجدوا السبيل للتخلص منهم. وربما فهم بعض الباحثين نصوص العهد الجديد خطأ وعمموا صفة النفاق على كل افراد الطائفة. ولعل من نوافل القول أن كثيرًا من الجوانب العقائدية لدى الفارسيين تتفق مع ما جاء فى المسيحية ومع ما جاء فى الإسلام.

وصفوة القول فى طائفة الفارسيين أن هذه الطائفة نشطت فى تطوير (اليهودية الأرثوذكسية) وامتد تأثيرها حتى القرن الثانى والثالث قبل الميلاد، وأيا كانت الانتقادات التى وجهت لعقائد هذه الطائفة وتركيزها على الجوانب الشرعية فى الدين اليهودى فإنه يعزى إلى الفارسيين الفضل فى حفظ اليهودية الحقة ونقلها من جيل إلى جيل، تلك اليهودية التى تقترب من الإسلام. ويرى الباحثون أن أعمق وأثبت العناصر بين القوى والطوائف التى بنت اليهودية والشعب اليهودى كانت موجودة فى الفارسية. وعلى العكس من معتقدات طائفة الزيلوت، نبذ الفارسيون الدعوة إلى العنف واستعمال القوة، معتقدين أن الله، رب الأمة يمسك بزمام العلم والمعرفة، وأن أسرائيل وسائر الأمم سوف يردون إلى ميعاد، وأن اليهودى الحق

يجب أن يعيش طبقًا لما جاء فى التوراه؛ ولا غرو إن يكرس الفارسيون الوقت الأكبر والجهد الأكبر للتعليم. ويجب أن نتذكر دائمًا أنه بعد هدم المعبد وسقوط أورشليم القدس سنة ٧٠م، كان السيناجوج والمدرسة الفارسية هى التى استمرت فى تأدية الرسالة وحفظ اليهودية.

ثالثًا: الزيلوت:

الزيلوت هم طائفة يهودية كانت تعترض بشدة وبلا هوادة على أية محاولة لاخضاع يهوذا للسيادة الوثنية الرومانية وكانوا يرون فى أنفسهم مدافعين غيورين عن الشريعة اليهودية (القانون) وعن الحياة الوطنية القومية للشعب اليهودى وكان للزيلوت نفوذهم وتأثيرهم أولا فى الجليل ثم بعد ذلك فى القدس وخاصة فى الفترة ما بين زمن هيرود (٣٧ق.م – ٤م) وحتى سقوط هذه المدينة فى أيدى الرومان سنة ٧٠م. وكانت هذه الطائفة إحدى الطوائف اليهودية قبل المسيحية والتى كونت ما يطلق عليه الباحثون (الفلسفة الرابعة) وربما بهذه الفلسفة تميزوا عن الطوائف أو الأحزاب الثلاث الأخرى: الصدوقيون، الفارسيون، الإيسينيون. وربما من أهم خصائص الفلسفة الرابعة هذه، الاعتراض الشديد على الحكم الأجنبى، وتسجل لنا المصادر حدثين يكشفان نشاط الزيلوت خلال حكم هيرود. الحدث الأول يتعلق بعشرة مواطنين من القدس يحملون خناجر مغمدة ودخلوا إلى مسرح رومانى، وقد أخطر هيرود بالواقعة واقتيد المواطنون العشرة إلى السجن وعذبوا حتى ماتوا؛ وكان الناس قد سخطوا وثاروا على الجاسوس الذى أبلغ بالواقعة ومزقوه إربًا. والحدث الثانى كان عندما قام هيرود بوضع نسر كبير من ذهب فوق بوابة المعبد، وقد دفع إثنان من الربابنة أتباعهم للتضحية بأنفسهم وعدم السماح بهذا الخرق لهيبة المعبد، وقام أربعون شابا واثنان من القادة بإنزال النسر من أعلى البوابة ولكنهم جميعًا أعدموا حرقًا.

ولقد أصبح الزيلوت تحت قيادة حزقياه (شهيد زيلوتى قطع هيرود رأسه دون محاكمة) وأبنائه، أصبح الزيلوت حزبا سياسيا شرسًا معاديًا للرومان بلا هوادة ولا يقبل مساومة أو سلام مع الرومان. ويرى بعض الباحثين أن سبب هذا العداء

والعداء الشعبى العام أن الرومان قاموا بإدخال المؤسسات الرومانية المعادية للروح اليهودية إلى المنطقة (التعليم الرومانى، الرياضة الرومانية، النظريات والرموز الوثنية، المجتلد وحلبات المصارعة..) وغيرها مما يمس مشاعر الناس. ولقد نشط الزيلوت نشاطا شديدا سنة ٦م إبان ثورة جوداس من جمالا فى الجليل الذى قاد الاعتراض على عملية الإحصاء التى هدفت إلى مسح الممتلكات لتثمينها وربط الضرائب عليها فى عهد كويرنيوس حاكم سوريا وعلى أساس أن هذا الإجراء من جانب الرومان إنما يتمثل فيه نوع من الاستعباد ويعتقد بعض الباحثين أن تكوين الزيلوت كحزب سياسى كان خلال هذه الثورة وإن لم تكن هناك أدلة كافية تؤيد هذا الرأى. وقد ورد ذكر اسم الزيلوت عرضا وإن لم يتم وصفهم فى إنجيل لوقا، حيث نعت سيمون أحد أتباع المسيح بأنه (زيلوت) كما وصف نفس هذا الشخص بأنه كنعانى.

وفى رأى الزيلوت أنه من عدم الولاء لله – سبحانه وتعالى – السماح بسيطرة الرومان على يهوذا، كما كانوا يؤمنون بحق الزيلوت فى أن يغتال أى رومانى يدخل إلى الحرم المقدس للمعبد فى الأماكن المحددة رسميًا فى البيان المكتوب والمعلق على جدار المعبد والذى اكتشفه الأثرى الفرنسى كليرمونت – جانو الذى أشرت إليه مرارًا من قبل سنة ١٨٧١م. وعلى عكس الفارسيين رفض الزيلوث دفع الضرائب للرومان واستخدموا كل وسائل التمرس الممكنة بالإدارة الرومانية فى رفضهم هذا. وفى الفترة التى سبقت الثورة اليهودية الكبرى الأولى (٦٦م) كان الزيلوت قد كسبوا أنصارًا كثيرين من كل طبقات الشعب. وكانت الانتصارات التى حققها الرومان والمكاسب التى ربحوها سنة ٦م قد أضعفت الحكومة اليهودية فى القدس ودعمت موقف الزيلوت الذين طاروا إلى القدس ولعبوا دورا هاما فى الدفاع عن المدنية، وأرهبوا خصومهم السياسيين الذين قبلوا بالحكم الأجنبى، بل وأبعدوا الكاهن الأعظم وانتخبوا خليفة له عن طريق القرعة. وفى إحدى المرات ولكى يستحثوا الأغنياء والمواطنين ذوى الحيثيات على مقاومة الرومان قام الزيلوت بإشعال النيران فى أحد المخازن الضرورية للتموين خلال الحصار ولكن حدث العكس وثار الناس ضدهم وساقوهم تحت قيادةإليعازر بن سيمون إلى الساحة

الداخلية للمعبد. وبمساعدة من الإيدوميين (القدوميين) استعاد الزيلوت السيطرة على القدس بقيادة جون من جيشالا واستأنفوا أعمال العنف والإرهاب. ولقد ولد من بطن هذه الطائفة طائفة الزيلوت طائفة أخرى أكثر عنفا وتطرفا هى طائفة السيكارى التى سوف نتناولها سريعا فيما بعد. وكان من بين قادة ثورة ٦٦م قائد يدعى مناحم بن جوداه الجليلى قد أدعت أنه المسيح وسار فى موكب عظيم تحيط به الأبهة من كل جانب متجها صوب المعبد بقصد تتويجه ولكنه اغتيل قبل أن يصل على يد أحد منافسيه من نفس الحزب، وهرب اتباعه من المدينة إلى مسادا على شواطئ البحر الميت وعندما بدأ الحصار الشامل للمدينة على يد الرومان دافع الزيلوت عن المدينة واستخدموا أقصى درجات العنف مع الرومان مما أدى إلى التدمير الكامل للمدينة سنة ٧٠م.

هناك من المصادر الثقاة من يتتبع أصول الزيلوت حتى الحاسديين أو الآسيديين وهم بدورهم طائفة دينية ترجع إلى الفترة المكابية (وسوف نلم بهم سريعا فيما بعد)، وبعض الباحثين يرى أن هناك علاقة إيجابية بين المكابيين والزيلوت وإن كان بعض المؤرخين ينفى ذلك تمامًا ويؤكد أن الزيلوت كانوا حزبا جديدا تماما ولا علاقة لهم بالمكابيين. ولقد صور بعض المؤرخين الزيلوت على أنهم أنانيون تماما لهم دوافع علمانية مادية ولكن الجانب الآخر من الصورة يقول بأنهم مثل المكابيين الأوائل كانوا على درجة عالية من الوطنية وكانت دوافعهم لاهوتية وكتابهم التوراة. وعلى أية حال فإن التاريخ اليهودى التقليدى قد أعلنها صريحة واضحة فى صالح الفارسيين الذين رأوا فى بيت الدرس والتعليم أهم شيء لليهود أهم من الدولة والمعبد. بيد أن بعض المؤرخين المعاصرين اليوم يرون أن الزيلوت يستحقون أيضًا الاعتراف والتقدير فقد كان هدفهم نبيلاً وإن كانت الوسيلة عنيفة. ومن الجدير بالذكر أنه جرت عدة محاولات بحثية للربط بين الزيلوت ومجتمع البحر الميت ومخطوطاته ولكنها خرجت بنتائج سلبية.

رابعًا: السيكاري

عرفوا أيضًا باسم (أساسينيون) وهم كما ألمعت بعاليه جماعة خرجت من تحت عباءة الزيلوت ولكنهم كانوا أكثر تطرفا وأكثر عنفًا من الزيلوت أنفسهم وقاوموا

الحكم الرومانى مقاومة شرسة فى العقدين السابقين مباشرة لتدمير القدس سنة ٧٠م. وكانت هذه الجماعة تحمل خناجر مخفية تحت عباءاتهم ولذلك أطلق عليهم باليونانية (رجال الخناجر) (أساسينيون) وكانوا يعمدون فى الأماكن العامة والاجتماعات الحاشدة، إلى طعن أعدائهم وخصومهم الذين كانوا أصدقاء للرومان أو أى شخص يضبط وهو يدنس المقدسات. وتذكر المصادر المعاصرة لهم أن عصابات من السيكاريين هؤلاء كانت تهاجم القرى وتسلبها وتروع يهوذا ما بين ٥٠-٧٠م. وفى بداية الثورة ضد الرومان، استطاع السيكاريون بمساعدة الزيلوت الآخرين النفاذ السرى إلى بيت المقدس حيث اقترفوا أعمالا وحشية لا رحمة فيها. وبعد هدم المعبد وتدمير القدس هرب بعض قادتهم إلى مسادا بمن فيهم مناحم بن يائير، إليعازر بن يائير، بار – جيورا وكانوا من أهم قادة هذه الحرب، وانتحروا هناك أمام القلعة الشهيرة التى استولى عليها الرومان سنة ٧٣م. أما الآخرون الذين هربوا إلى غابات وأحراش جاردس بعد تدمير القدس فقد سحقهم الرومان وأبادوهم عن آخرهم.

خامسًا: الحاسيديون:

يطلق عليهم أيضًا الآسيديون (أى الأتقياء). وكانوا هم أيضًا جماعة أو طائفة دينية يهودية لا نعرف على وجه اليقين منشأهم وإن كان بعض الباحثين يجعل منهم أول طائفة دينية يهودية ويرجع أصولها إلى القرن الثالث أو الرابع قبل الميلاد وكان قصدهم إحياء الشعائر الدينية والدعوة الدينية ودراسة الشريعة اليهودية (القانون) واجتثاث الوثنية من الأرض. وقد ورد ذكر هذه الطائفة لأول مرة خلال اضطهاد انطيوخوس الرابع (إبيافانيس) ملك سوريا (١٧٥ - ١٦٤ق.م) فى القرن الثانى قبل الميلاد، عندما التحق أعضاء هذه الجماعة بالمعارضة المكابية بقيادة متاتياس فى ثورته ضد السوريين، وشكلوا نواة الثورة المكابية ورفضوا رفضًا قاطعًا المساومة بأى حال على سياسة هلننة السوريين وقد تحملوا التعذيب والاستشهاد على ترك صلواتهم وطقوسهم الدينية اليهودية. وثمة إشارات صريحة إلى الآسيديين فى أسفار المكابيين وفى التلمود. وفى الإشارة إليهم نجد "رجال أتقياء فى إسرائيل.

كما أنهم مكرسون للشريعة". وفى التلمود إشارة إلى الحاسيديين بأنهم ملتزمون بوصايا موسى وبالصلاة الخاشعة والتى لا يضحون بها ولو جادوا بأنفسهم، وكذلك على التزامهم بالسبوت. وربما بسبب هذا الالتزام الصارم بالشريعة والقانون ربطهم الباحثون بالإيسينيين، وإن كان إجماع الباحثين الحاليين على أن الآسيديين هم الأسلاف الروحيون للفارسيين.

* * *

obeikandl.com